

سُورَةُ الدِّينِ

هذه قصة مزحة لم تعد في أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفتك والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونضجت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هي أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها في بادئ الأمر .

رأيت الفتى - بطل المزحة أو بطل القصة - أول مرة في ذلك النادي الذي اعتدت أن أقضي به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصريين وجوء الحسان اللاتي تآثرن هنا وهناك .. وكان يجلس في ركن من أركان الصالة الفسيحة المزدحمة وقد دفن رأسه في كتاب بيده لا يحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب إلى الدمامة .. بوجهه الأسفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبذلك وبذلك الأسنان الصفراء البارزة المديبة . وذلك المنظار السميك الذي يكاد يلمس صفحات الكتاب الذي في يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك في نفس المكان وفي نفس

الوضع لا يلتفت بمنة ولا بسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولا يرفع رأسه
عن صفحات الكتاب .. وكنت أحس له في نفسي شيئا من النور ..
وأغلب ظني أن هذا هو الشعور الذي كان في نفس كل من يراه ..
ولكن حدث ذات يوم أني وجدت نفسي مضطرا إلى الجلوس إليه
ومحادثته .. فقد كانت القاعة خلوا إلا منه ومني .. ووجدته ينسج لي
لتسامة خفيفة فاضطرت إلى مجاذبته أطراف الحديث .. وأعجبنى
حديث الفتى ، فقد كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محبة
يبنى ريشه .. والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل الاختلاف ..
فقد كان رقيقا شاعري النفس ، حلو الحديث ، وإن كان أكثر ما يعينه
هو فرط حيائه لا تكاد تصدى تلك الصفحات من مئات الكتب التي
يغرق فيها رأسه .

وبدأ أصدقائي الخيلاء يتحدون من الفتى ملهاة لهم ، ومسللة
يتندرون به فيما بينهم .. وانتهى بهم الأمر أن يدبروا مؤامراتهم
العاوجة .. والتي لم أعلم بحقيقتها إلا فيما بعد .. والأ لوضعت حدا
لمزاحهم الشائكة وخاصة مع مثل هذا الفتى الحي .. والذي ما أظنه
قد جلس في حياته إلى امرأة قط .. أراد الأسقياء أن يعيشوا بالفتى فاتفقوا
مع فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تعطف فيه مبلغ إعجابها
به ولهفتها عليه .. ونقول (أن حبها قد بدأ منذ رآه جالسا في صمته
ووجدته بعيدا عن الناس ولهوهم ، ومحورتهم .. وأنها لم تتمالك نفسها
من الإعجاب بسيماء البلى الياذة عليه) ؛ ثم انتهى الخطاب بتحديد لقاء
في الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة في ملتقى العشاق بأحدى
الضواحي الثانية .. ثم تضيف إلى ذلك ملحوظة جاء فيها : (يمكنك

معرفة بي السوادوين الحريين وسعطى الأحمر ووردة بضاء
سأملك بها في بدي) .

ويستطيع المرء أن يدرك وقع مثل هذا الخطاب في نفس الغنى
الذي يدوب حجابا وحياء .. والذي ما خطر له أن غاة يمكن أن
تعشقه ، بل الذي لا يذكر أن غاة نظرت إليه نظرين متتاليتين .

ويملك الغنى بالخطاب ويخلع منظاره ليمسحه جيدا .. ثم
يأخذ في تلاوته منى وثلاث ورباع ، والأشقياء على مقربة منه يسترقون
النظر إليه ويضعون أكتفهم على أعواهم خشية أن تغلت منها الضحكات
التي تعمل في صدورهم ! ثم يطبق الغنى الخطاب في رفق وعناية
وبعضه في جبهه ثم يروح في شبه ذهول .. ولا شك أن الغنى قد قضى
يومه قلما حائرا فقد لقته وفي عيني نظرات غريبة ثم انتحي ناحية بعيدة ،
ودفع إلى بالخطاب ووجهه يصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منى قراءته
ثم راح يرمقني في صمت فلما انتهيت من قراءته سألتني في صوت
عجول :

- يخيل لي أنني أعرفها .. وأحس بلهفة إلى الذهاب للقائها ..
ولكني لا أجد في نفسي الجرأة الكافية .

فقلت :

- الأمر لا يحتاج إلى جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من
حياء سيذوب بمجرد لقائك إياها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن في الأمر مزحة مدبرة .. والا لأجته بغير
ذلك .. ولاطلعت على الحقيقة حتى لا أتركه العوبة بين أيدي هؤلاء

الحاجين العاشين .. ولكنني كنت أظن مثله أن الأمر لا يعدو الحقيقة فقد
كان الخطاب مكتوباً بأسلوب متزن معقول لا يكاد يميز المرء فيه عزلاً
أو مزاحاً حتى جاء يوم الجمعة .. فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبروا
المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من النبي وإخراجه من
صحته ووقاره .

وشعرت بالأسى بتملكني فأسرعت إلى داره لأتيه بحقيقة
الأمر .. ولكن ما أن وقع بصري عليه حتى وجدته قد تألق وترين والمطر
يفوح منه ورأيت وردة حمراء تربع على صدره .. ولمست الأمل
بترقوق في وجهه .. كل ذلك جعلني أخرج من ذكر الحقيقة التي
ستهدم تلك القصور الشامخة التي شادها النبي في رأسه فألقيت إليه
بضع كلمات نافذة وغادرته بعد أن وعدته بالعودة إليه بعد أن ينتهي
من موعده .

وعدت إليه في العاشرة .. فقد أحسست أن من واجبي أن أرفقه
عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل .. فقد لحيلته بحمليق
بمظاره ومقاربه في كل امرأة تمر به دون أن تعبده أحداهن أدنى
التفاته .. ولم يعد النبي إلى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد
أقبل حزينا ملتناحاً وقد بدا عليه الإعياء .. فألقى نفسه على مقعد وقال
كمن يحدث نفسه :

- أنها لم تأت بعد .

- ربما قد عافها مرض .. أو حدث لها طارئ منعها من

الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أحجبه هذه الإجابة التى أعادت
الأمل الى نفسه .. وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم .. فقد
أجاب :

- نعم .. لا بد أن يكون هناك ما منعها .. ولا بد أنها مشكك
التي مرة أخرى لتشرح ما حدث .. كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه
أو أصابها سوء .

فلاشك أنها كانت تنوى الحضور والا لما كتبت تقول ذلك .

وفى الواقع .. كان يجب على أن أفضى اليه بالحقيقة كلها فى
ذلك الوقت ، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم
أرد أن أحمل الفتى حية فوق حية .. وفضلت أن أترك الظروف تدبر
أمره وللزم من أن يتركه مما به ، ويتسبه ذلك الخطاب وصاحبه .

ولشد ما أخطأت فى ظنى .. فلم تزد الأيام الفتى الا استعارا ..

لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب الى مكان اللقاء فلا
يعود الا فى منتصف الليل .

وكان على أن أفعل شيئا وقد أوشك الفتى على الجنون ، ورأيت
من العيث أن أخبره أن المسألة كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير
على المرء أن يتزعج الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يشعنه أنها كائن
لا وجود له الا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى يندع به .. وعلى
ذلك فلم يكن أمامي الا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلا ..
وأن أحولها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة .. فأجعلها تلقاء حتى يهدأ
باله وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمه
ومهارة .. وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديقى الشهير

بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتات
الساحرات بين الكفوس والضحكات .. فذهبت اليه وقصصت عليه
القصة ، وسأته لو أمكن أن يتفق مع إحدى صاحباته على أن تلقى الفتى
مرة أو مرتين فتتلف مع بعض الشيء ، ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقائه
بعد ذلك لأنها سترحل بعيدا لعذر تتحله .. وأخبرته أن من الخير ألا
تكون الفتاة مفرطة في الحسن حتى يسهل على الفتى أن يساها بعد
ذلك .

وفي اليوم التالي أخبرني صاحبي أنه استطاع أن يقنع أحدها ببقاء
الفتى وهي - وإن كانت بارعة الحسن - إلا أنها أيضا خيرة بالنفوس
ذاهية مأكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى إلى نفسه من اللقاء الأول وتجعله
يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

وكنت جالسا مع الفتى عندما جاء الخطاب الثاني .. وأبصرت
به يقفه يده ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد الدم إلى وجهه .. ثم رأيته
يعد يده التي بالخطاب ويقول في صوت هامس :

- ألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن لي من حاجة إلى قرائته فقد كنت
أعلم ما به .

ولكني تظاهرت بالقراءة .. لقد كان الخطاب اختصارا بالعرض
وموعدا للقاء في نفس المكان وفي نفس الساعة .. وذهب الفتى الموعد
وانظرت أن يزوب سريعا ، ولكن غيبته طالت حتى تخشيت أن يكون

قد معه سوء أو يكون قد ألقي بنفسه في النهر ومات متحررا .. وثقيته
في اليوم التالي فأقبل عليّ باسمها متهللا .. وبدأ يحدثني عن لقاء الأمل
فوصف لي كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارغة ومعطفها الأحمر
ووردتها البيضاء .. تماما كما حدثت في خطاياها لانكاد تختلف في شيء
سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حريتين بل كانتا ليرقان بالمرح
ونشعان بالسرور .

- انها نشوة أثارتها في نفسي .. ما ظنت قبل أن أراها أن من
الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت .. لقد
أقبلت عليّ هاشة باشة كأن بيننا قديم صحبة .. والواقع أنني أحسست
أن روحينا قد التقينا قبل الأمل مئات المرات ! وأمسكت بيدها واتحججا
ناحية هادئة على الشاطئ ، وطلبت مني الفتاة أن أحدثها عن نفسي ،
قرأيت لساني بطلق في الحديث ويزوي لها كل ماوعته الذاكرة من
الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين في نشوة .. وأنا
أحدثها بلساني وهي تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

- منلقتي اليوم مرة أخرى .. وقد تركت لي عنوانها حتى
أستطيع الاتصال بها إذا ألمّ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصور مدى ما أحاسني من الدهشة والذهول
عندما سمعت حديث الفتى .. وشعرت أن المشكلة تزداد تعقدا وأن
الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتريد الفتى لهما بدلا من أن تطفئ لهيبه !
تري كيف تستطيع أن تخلص نفسك منه بعد ذلك ؟ .. وذهبت
إلى صاحب الفتاة وأنا حائض ثائر .. فلقيني باسمها ساحرة وقال :

فهذا هو صاحبك الذي تخشى عليه ؟ كان خيرا لك أن
تخشى منه لا عليه .. اياك أن تعود لاقرض صاحباني لأصدقائك فأنهم
محتاجون لايردون القرض .

وتملكى الذهنة عندما سمعت أن الفتاة التي ذهبت لتمتل دورها
القصير لم تجد الفتى قبيحا كما تخيلته بل وجدت رقيقا مهيذا ،
واستطاع أن يأمرها بـسحر حديثه وعذب حوته .. حتى لقد أقسمت
أنها تستطيع أن تستمع اليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فإذا بالمرحة قد انقضت فصارت غراما فياضا وهوى
جارفا ، وكاد الأمر ينتهي بها فتصبح زواجا سعيدا لولا أن حدث ما لم
أكن أتوقع حدوثه قط .

في ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا
المرحة في أول الأمر . لولا أدرى أى شيطان دفع الخيت الي أن ينضى
الي الفتى بقصة الخطاب من أولها الي آخرها .. وأصيب الفتى بعندة
أخرى عيلة قاسية أفقدته رشده .. فقد رأى أنه لا بد أن يكون في
كل هذه الأحلام العذبة العوبة وسحرية .. وسحق قلبه أن يكون كل
ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل مآجن .

ولمضى الفتى بوجه متجهم عابت ، وهيكل محطم مهدم ،
واعترفت له بكل ما حدث .. ولكني أخبرته أن شيئا واحدا مما حدث
لم يكن به أى هول أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن
أقنعته حقيقة ما حدث ، ولكنه أشاح على بوجهه وانصرف كأنه سمع
أو خيال ، وشعرت أن رأسي يكاد أن يتسجر .. وحسيت على الفتى
أن يودى به وهم كاذب .. ولم أجد خيرا من أن أسرح الي الفتاة فأنسها

بما حدث حتى تسرع اليه فتقنعه بأن حبها له حقيقة لا خداع .. ولقيت
الفتاة وهرعت واياها الى دار الفتى واقصمنا حجرته لتقده من شر
أوهامه .. ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا .. فقد أنقذ الفتى نفسه
بنفسه .. لقد انتحر المسكين ، وترك الفتاة ترمى باكية أمام الفتى
المسجي على فراشه وغادرت الدار .. فقد أحسست أنني أوشكت على
الاحتراق .

يا للسخرية ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد
مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته مستهية بمثل ما
انتهت اليه .. أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟
